فن القيـــادة

للكاتب الفرنسي أندريه موروا

بقلم الأستاذ محمد أديب العامري

وفي الختام لابد للزعيم من أن يجمع في حسابه بين التقاليد والعادات . أجل إن الحياة عنده والبقاء فضيلة ، ولكنه يبني بناء المستقبل من مواد الماضي المتينة ، فيسكبها في قوالب تخضع لحاجات الحاضر ؛ لكنه لا ينبذها . ولقد أوضح (كبلنغ) في قصة رائعة، كيف يعاقب آلهة النهر بناتي الجسور الذين يخرجون على القوانين القديمة في الأعمال . إننا نحن رجال القرن العشرين لسلحون تسليحا عجيبا للتغلب على العالم . لكن للعالم أساليب شنيعة في الانتقام لنفسه ، ولا يسهل علينا دائما أن نبصر جرائر أعمالنا . ففي الثورة مثلا يقوض الناس وسائل الدفاع المعهودة في البلاد . غير أن هذا الرأي لا ينكشف إلا في النهاية . فالثورة الفرنسية انتهت بعهد الرجعة إلى الماضي . أما الزعيم الحكيم فلا ينسى أن ما ينشره المراف لا تلتئم أطرافه بعد أن يكون السحر قد فعل أفاعيله

ومهما يكن مركز الزعيم ، وزيراً، أو مديراً، أو رئيس مكتب، أو بناء ، فإنه يتصل بتابعيه بطرق ثلاث : بالأوامر التي يصدرها والتقارير التي يتلقاها والتفتيش الذي يجريه . أما الأمر فيجب أن يكون واضحا ، إن التخيل والتفكر يمكن أن يكون غامضا ، والخطة التي لم تنفذ بعد يمكن أن تحمل في تضاعيفها آثار الرؤيا. أما الأمر فيجب أن يكون واضح المعالم ، وجميع الأوامر يمكن أن يساء فهمها . لكن الأمر الغامض لا سبيل إلى فهمه قط . قال (نابليون) : « إذا أردت أن تقوم بعمل قياما حسنا فأده بنفسك »

وفي العوالم التي تعيش بضعة قرون . ثم كان يتساءل : فما الفرق بين الحشرة والكون ؟ بضعة شروق شمس لا أكثر ولا أقل !

وكان لشدة خوفه من الموت يقول : « إن الموت يقترب مني . أريد أن أمد إليه يدي وأبعده عني . إني أراه في كل مكان : في الحشرات المدوسة على الطريق ، وفي الأوراق المتساقطة على الأرض ، وفي الشيب الذي يجلل رأس هذا الصديق ! إن هذا كله يدمي قلبي ويصيح قائلا لي : أنظر ! إنه يقضي على كل ما تفعله ، وكل ما تنظره وتأكله وتشربه وتحبه ! إنه يحرمني رؤية شروق الشمس ، وبزوغ البدر ، وتقلب أمواج البحار ، وجريان مياه الأنهر، ونسمات العصر البليلة التي ينعشنا تنشقها ! »

وساءت حالته الروحية بعد فقد أخيه (هرفه) على أثر نوبة جنون انتابته . ولكنه ازداد نشاطا وانكبابا على الكتابة وتأليف القصص والروايات ، حتى إن هذا الدور كان من أكثر أدوار حياته إنتاجا ، كما لو أن السموم التي تفسد دمه ، استخرجت أفضل ما فيه قبل أن تقضي عليه . وكان يتراءى له أن كل ما في منزله من أثاث وأدوات يتحول إلى حيوانات كانت تدخل غرفته ثم تخرج منها وتنزل الدرج إلى الشارع . ووقف مرة أمام صليب كبير كان قائما في إحدى الساحات وقال لخادمه : أنظر يا فرنسوا ، لقد كان في الثالثة والثلاثين عندما صلب ، وأنا الآن أقترب من الحادية والأربعين !

لقد كان موبسان رسام النفس البشرية الأكبر . كان يرسم بدون بغض وبدون حب وبدون غضب وبدون شفقة . كان يرينا ما في هذه النفس من شوائب وعاهات بلباقة وإتقان يحملاننا على الاعتقاد بأنها حقائق ننظرها بأعيننا ونلمسها بأيدينا

وبعد منتصف ليل رأس السنة بساعات قليلة ، تناول مسدسا وأطلقه على رأسه بحركة جنونية . ولما رأى أن المسدس كان فارغا أخذ يطعن عنقه بشفرة الحلاقة إلى أن سالت دماؤه . ثم أخذ ينظر إلى فعلته هذه بصورة تدل على قلة الاكتراث . ولما أسرع الخادم إليه صارخا قال له : أتنظر يا فرنسوا ماذا فعلت ؟ إنه الجنون بعينه !

وقدم الأطباء وضمدوا جراحه . وفي اليوم التالي حملوه إلى البحر لعل رؤية بحته تعيد إليه وعيه . فحدق قليلا في اليخت ، ثم حرك شفتيه كطفل ولم يقل شيئا . وعادوا به إلى البيت حيث توفي ، وقد كان ذلك في عام ١٨٩٣

(العصبة)

اسكندر كرباج

ولكن هذا غير صحيح . أما القائد الحصيف فيعترف بأن الذين يدركون الأمور من الناس قليل ، وأن جميعهم على وجه التقريب ينسون ، فليس من الممكن إذن أن يقنع الآمر بإصدار الأمر ، وإنما يجب أن يراقب تنفيذه وأن يتبصر عند إصدار الأمر بأى سبب يمكن أن يعوق تنفيذه . ولاحد لبلادة الناس ولا لسوء الطالع ، ولذا يتوقع الزعيم دائما حدوث مالا ينتظر . والزعيم الذى يسعى للحيلولة دون عوامل الخطأ ويحتاط لنقاط الضعف فى الخطط ؛ أقوى على تنفيذ ما يريد عندما يواجهه الناس بغبائهم أو تعارضه الصدف السيئة ، من زعيم آخر لا يحتاط لهذه الأمور

والحاجة إلى هذه الاحتياطات تكون أقل إذا فاز القائد بجماعة من حوله علمته التجارب أنه يستطيع الاعتماد عليهم . ولكل زعيم وطنى وزارته كما لكل قائد عسكرى أركان حربه . وهؤلاء المساعدون يعرفون خصائص زعيمهم كما يعرفون سبيلهم إلى خدمته ، وهم لذلك يدركون تعليماته فى سرعة متناهية ويراقبون تنفيذها إلى آخر حرف فيها . غير أن عدد الذين يمكن الاعتماد عليهم من الناس فى هذا العالم قليل . وقد روى عن (الرئيس ولسون) قوله : إنه كان يثق بالبشرية ، ولكنه كان لا يثق بالرجال جميعاً . أما القائد الصحيح فيشك بالبشرية ويثق بعدد قليل من الرجال

وكيف السبيل إلى اختيار هؤلاء الرجال ؟ إن أول واجبات الزعيم أن يتعرف إلى جماعات منهم يستطيع أن يختار منها أعوانه ، ومن الصفات القوية فى (المارشال بيتان) التى برزت عندما تولى قيادة الجيش الفرنسى كانت أستاذيته السابقة فى الكلية العسكرية التى مر على يديه فيها أجيال من الضباط الأحداث وكان (جامبيتا) يتجول فى كل ناحية من فرنسا ليتعرف إلى القضاة فى دوائره . والرجل الذى يكتسب شرف القيام بحكم بلاد يجب أن يحاول اكتشاف أحسن الرجال لأهم الدوائر الحكومية — وليس عليه أن يستفيد مما يجد بين يديه فحسب ولكن واجبه يقضى عليه كما تقضى عليه مصلحته أن يخلق مواد جديدة . وتقوم الأحزاب السياسية خارج فرنسا بهذه المهمة . فالمحافظون مثلا فى إنجلترا يصنعون هذا . إنهم يراقبون يقظة الجامعات الكبرى يرجون أن يجدوا فيها شبابا يتحولون فى المستقبل إلى ساسة ، وهنالك كلية خاصة لتدريبهم ، فإذا أثبتوا ذكاءهم فإن الحزب يكسبهم مقاعد فى البرلمان كما يحاول رئيس الوزراء أن يقدم للاحسن منهم الفرص الممكنة ، فيبوئهم مراكز لمساعدة الوزراء كوكلاء فى البرلمان. ولا بد لزعيم الحزب من أن يجند للحزب من حزبه رجالا يصلحون للحكم . وهذا الواجب يقع كذلك على مديرى الأعمال الكبيرة ولا ريب أن بعض هؤلاء يدركون هذه الناحية ، فمدارس (كروسو) مثلا تدار بمهارة تدعو للاعجاب ؛ فهى لكل طالب الفرصة اللازمة ليثبوا أنى المراكز التى تؤهله لها ملكاته

ومن الصعب فى غالب الأحيان إيجاد التفاهم التام بين المساعدين إذ من الضرورى هنا نفى التعصب أو التحزب المحلى فى أية دائرة لتنسجم تلك الدائرة مع المصالح الأخرى ، ففى السكة الحديد مثلا حيث تنشأ الخلافات بين الإدارة والأقسام الفنية ، أو فى قيادة الجيش حيث ينشأ التشاحن بين مركز القيادة والضباط فى الميادين ، فى هذه الحالات يجب أن يدرك كل إنسان أن الجيش أو العمل أو البلاد تشبه جسما حيا قائما برأسه وأن أى اضطراب يقع بين أعضائه إنما يكون انتحارا محضا

وكثيراً ما يقع أن المساعدين الذين يعجبون برؤسائهم ويخلصون فى العمل لهم يتناب عليهم الحسد ويتنافس بعضهم مع بعض بشره عنيف فى التماس رضاهم ، فيجب أن يحسب لهذه الحالات المتعبة حسابها وأن يعالجها المعالجة اللازمة لأنها ذات خطر كبير فى نظام العمل ، وكما يستطيع السائق الماهر الخبير أن يعرف بالإصغاء إلى آلة سيارته أن إحدى أسطواناتها لا يقع فيها اشتعال كما يجب ، كذلك الزعيم الموهوب يعرف أن مساعديه لا يؤدون الخدمة اللازمة له ، فيفتش عن السبب ويتوصل إلى معرفته ، وكثيراً ما يكون السبب تافها — قد يكون شيئاً من الانسياخ فى آلة الاشتعال ، وقد يكون هزة للاكتاف لا تزيد عند تحليلها على حركة عصبية تؤول على أنها تحقير مقصود

ويتلقى الرئيس تقارير عن نشاط موظفيه ونتائج التعليمات التى أصدرها إليهم ، وهو يطالع هذه التقارير فى حذر وشك . ولقد أعرف رئيساً لمصنع كان يقول إن جميع التقارير كاذبة . وكان على حق ، لأن كل شىء فيها تقريبا عرضة للمبالغة والتشويه ، والطريقة الوحيدة لتجنب الخطأ فى الحقائق هى أن يجرى المرؤول تفتيشا خاصا بنفسه من آن لآخر ، ويكون لهذا التفتيش نتائج ضالة بالغاية كما تكون الفكرة الناتجة عنه صحيحة ومدعاة لتصحيح التقارير التى ترد فيما بعد ، ويذكر (المارشال بيتان) حكاية وقعت فى

سنة ٩٥١ . عندما عين قائدا فى أحد القطاعات التى طالبت فيها القيادة العامة بالهجوم مرات متوالية كانت البلاغات الصادرة تدل على تقدم بطىء وخسارات فادحة، فلما شك (بيتان) فى الأمر شخص إلى الجبهة ومعه المراصد اللازمة فوجد البلاغات قد شوهت لغاية إرضاء القيادة العليا وأن الانتصارات كانت خيالية لا أساس لها من الصحة. والتقارير التى ترفع لأولى الأمر تكون دائما مرضية أو تقدم على شكل يرجح النظريات التى يؤمن بها صاحب التقرير

والقائد الذى يطالب موظفيه بما يريد يستطيع دائما أن يكسب عطفهم أكثر من قائد لا يبالى بالأمور . وأمثل الطرق لفرض الحزم فى العمل هو أن يحيط القائد نفسه بالأشخاص الذين يجد فيهم من الصفات ما يرضيه . ومن العادة أن يتقبل أى إنسان النقد إذا لم يكن هذا النقد موجها إلى خلقه أو إلى ذكائه. والخطة الحكيمة فى هذا الصدد أن يعرب المسؤول فى سرعة وقوة عما يحس به إحساسا قويا. وإذا وجه توبيخ قاس بسرعة فإنه يكون أقل إيلاما من الإبانة عن عدم الرضا المشحون بالكراهية. ويجب أن يدرك المأمورون أنهم يكونون عرضة للعقوبة إذا لم يقوموا بتنفيذ الأوامر الموجهة إليهم ، كما يجب أن يعلموا حق العلم أنهم معفون من جريرة تنفيذ الأوامر التى تؤدى إلى الهلكة . والقائد الحكيم يتحمل دائما المسؤولية الكاملة فيما يقوم به من أعمال

والقائد هو المدافع الطبيعى عن شعبه ضد عدوان المعتدين . ومن اللازم أن يراقب كل قائد عماله أو جنوده أو بحاريه ليستوثق من أن المعاملة التى توجه إليهم من رؤسائهم عادلة محترمة. وهذا أصعب واجبات القائد ، إذ يجب عليه أن لا يضعف من سلطة مساعديه ولا يصير على التصرفات المسيئة التى يقترفها أصحاب السلطة منهم . وليس من قاعدة هنا يمكن سنها ، وإنما يحاول المسؤول أن يرفع كفة ويرجح أخرى حتى يحفظ التوازن المطلوب

ومن واجبات الزعيم أن يتنبأ ما استطاع بالتذمر الذى يمكن أن يقع فيعالجه كما يعالج الظلم قبل تقديم الشكايات . وللوصول إلى ذلك لابد من الاتصال المستمر بالرجال الذين يعملون معه . وهذا يعنى أن ينزل إلى الخنادق إذا كان قائداً عسكريا وأن يراه العمال دائما بينهم زائراً لهم بين آونة وأخرى إذا كان مديراً لعمل. ولابد للزعيم من خيال يسعفه فالاطلاع على حياة الآخرين شىء ضرورى له لكى يتمكن من حماية الذين يكابدون المتاعب منهم . وسر الوصول إلى محبتهم أن يشعر معهم وأن يستطيع مساعدتهم فى أعمالهم بالقدرة التى يستطيعون القيام بها هم أنفسهم . والناس يصبرون على تلقى الأوامر بل يحبون ذلك إذا كانت هذه الأوامر تلقى صحيحة واضحة

ويختلف الحكم على القيادة فى الفن اللازم لها زمن السلم ، فالقيادة تعنى إيصال جماعة من الناس تحت نظام صارم إلى غاية معلومة . والضابط فى الجيش يعلم أن رجاله يطيعونه إلا فى الحالات النادرة من العصيان الخطير . وهو يحيط إحاطة تامة بالغاية التى يرمى إليها سواء كانت دفاعية أو كانت للاستيلاء على مقاطعة معينة . ورئيس مشروع تجارى كبير مثلا يعلم أنه يجب أن ينتج بضاعة من البضائع بسعر معين ومقادير محددة كما يعلم أن فشله يؤدى إلى دمار المشروع وإلى تعطل موظفيه وعماله. ومن المعتاد أن يكون قادرا على السيطرة على الموقف مادام يتبع الأنظمة إلا فى حالات يضطرب فيها النظام الاجتماعى . والحاكم المطلق كالقائد العسكرى يقود ولا يحكم

أما رئيس الحكومة فى أمة حرة فيوجه البلاد إلى أهداف متغيرة ويدير أعمال جماعات من الناس غير مكلفين بالطاعة إلا بعامل الخوف من الفوضى . وهذا العامل غير موجود فى أيام السلم. ولا يستطيع أن يقوم بأى عمل دون أن يوجه إليه خصومه النقد بقصد إحلال رجل آخر مكانه فى غير لين ولا رحمة . ومساعدوه فى هذه الحالة لا يبدون له الاحترام اللازم فإنهم أكفأ له وإن منهم خلفاءه فى المستقبل

وهنا يرد هذا السؤال : ماهى الصفات التى نتطلبها فى رجل نلقى إليه أعباء إدارة شئوننا ؟ وأول ما فى هذا الباب هو إحساسه بما يمكن وما لا يمكن . وفى الأعمال السياسية يعتبر من العبث أن يخطط القائد مشاريع عالية عظيمة إذا كانت حالة البلاد لا تأذن بتنفيذها. إن دوافع الشعوب الحرة تشبه متوازى القوى، فالسياسى العظيم يدرك كل الإدراك ماهية هذه القوى ويخاطب نفسه دون أن يرتكب خطأ شنيعاً فيقول : «إننى أستطيع أن أمضى إلى هذا الحد لا غير» ولا يسمح لنفسه أن ينحاز إلى طبقة متجاهلا رد الفعل

الذى يحدث عند الجماعات المهملة . والطبيب الحصيف لا يداوى مريضا من شكوى خفيفة عابرة بعلاج يولد مرضا فى الكبد . والسياسى العادل لا يرضى الطبقة العاملة على حساب الطبقة البورجوازية ، ولا يطلق العنان للبورجوازيين على حساب الطبقة العاملة . وهو يجهد فى أن ينظر إلى الأمة نظره إلى جسم حى كبير تعتمد أعضاؤه بعضها على بعض . وهو يزن حرارة الرأى العام كل يوم ، فاذا ارتفعت هذه الحرارة أعد العدة لتلافى الأمر وإراحة الأمة

وهو يدرك الإدراك كله قوة الرأى العام ، ولكنه كسياسى ماهر يعرف أنه يستطيع أن يؤثر فيه بسهولة . فانه يعرف قوة الشعب على عدم الاكتراث بجهوده ، وأن للناس ساعات يبدو فيها منهم العنف ، وحق لهم أن يفعلوا إذا كانت الحكومة تجلب لهم الفقر وتحرمهم ما ألفوا من حرية أو تتدخل فى حياتهم الخاصة . غير أنهم يرضون أن يسير بهم رجل يعرف إلى أين يتجه ويبدى لهم بوضوح اهتمامه الصميم لمصالح الأمة ، وأنهم يمكن أن يركنوا إليه ويعتمدوا عليه

أما القدرة على معرفة ما يمكن وما لا يمكن فليست تعنى استحالة بعض الأشياء ، لأن هذه صفة سالبة ، ولكنها تعنى وقوع الأحداث التى تظهر عسيرة جدا . إن الرجل السياسى العظيم لا يقول لنفسه « هذه الأمة حفيفة » ولكنه يقول « هذه الأمة نائمة ، وإنى سأوقظها » إن القوانين والأنظمة والمؤسسات من صنع الناس ولذلك أستطيع أن أغيرها عند الحاجة

وأهم من ذلك كله أنه يتبع العزيمة والتصميم أعمال لا أقوال فقط . إن سفار الأحلام من السياسيين ينفقون معظم أوقاتهم فى رسم الخطط والدعوة إلى المذاهب . إنهم يتحدثون عن الإصلاح والبناء ويخترعون أنظمة اجتماعية معصومة من الخطأ ويسنون خططا لسلم دائم . ولقد قلنا عندما بحثنا فى فن التفكير أن المشروع شىء والعمل شىء آخر . إن السياسى الصحيح يعرف عند الحاجة كيف يحترم فى خطبه العامة النظريات الحديثة ويصرح بعبارات جذابة بفائدة الرجال الذين يحرسون أبواب المعابد ، ولكنه من حيث الواقع إنما يعمل لسد الحاجات الحقيقية التى تحتاج اليها الأمة . فهو يقول مثلا . إن فرنسا سنة ١٩٣٩ ينبغى أن تؤمن السلام ، قبل أى شئ آخر وأن تنشىء لنفسها دفاعا جويا بإنشاء عدد أكبر من الطيارات وأن تزيد إنتاجها من الصناعات الأخرى ، وأن تنظم أحوالها المالية تنظيما وطيداً . وهو يعمل على إنجاز هذه الأهداف الواضحة الصحيحة بأحسن الطرق التى يراها ، فاذا صادف عقبات فى سبيله فانه يدور حول هذه العقبات . أما الغرور والكبرياء الثقافى والشعور بالحاجة الشديدة إلى نظام شديد زائد فانها موانع خطيرة فى وجه السياسى . وبعض زعماء الأحزاب على استعداد لتضحية بلادهم من أجل نظرية أو مجموعة من المبادئ . أما الزعيم الحقيقى فيقول : فلتنتح عن المبادىء ولتخلص البلاد »(١)

هل يكون علمه مبتوراً ؟ هل يعقب ذلك ظلم ؟ إنه يدرك أن هذه ممكنات ، وكل عمل معقد لا يتم بكامله . وفى كتاب (لجورج رنانو) يحاول كاهن مسن أن يعلم كاهنا صغيرا أن القديسين أنفسهم لا يستطيعون أن يحولوا ديرا إلى مجموعة من الأولياء ذوى الاستقامة والصدق التامين . ولكى يدلل على هذا يروى الشيخ حكاية امرأة بلجيكية أرادت أن تحول كنيسة غير نظيفة إلى معبد نظيف مشرق النظافة . فقامت على مهمتها ، وأخذت تزيل الغبار المتراكم . ولكن طبقة من الغبار الجديد كانت تتراكم كل صباح ، كما كان العشب ينبت هنا وهناك وتنسج العناكب خيوطها فى الزوايا . غير أن المرأة لم تيأس واستمرت فى التنظيف والغسل ، فأخذ الطحلب ينمو على رؤوس الأعمدة ، وتراكم الوسخ فى الكنيسة أيام الآحاد . أما أيام الأعياد فقد أرهقتها وذهبت بقوتها واستمر الرجل المسن يقول : « لقد كانت مجاهدة لا شك ، ولكنها كانت مخطئة ، وخطؤها لم يكن فى محلها فى سبيل النظافة ولكن محاولتها التخلص من الوسخ بتاتا ، كأن شيئا مثل ذلك ممكن . إن الكنيسة مكان لا بد من أن يظل متسخا

والقارة أشد اتساخا من ذلك ، وخاصة إذا كانت قارة عجوزا مثل أوربا ، غزتها طوال أجيال عديدة الأعشاب والنمال بالكراهية والمرارة . وكان (ولسون) أشبه ما يكون بالمرأة البلجيكية فقد أراد أن يحيل هذه الأرض العتيقة المنيرة فى سرعة مفاجئة إلى حلف من المحامين . كانت فكرة بديعة ولا ريب ، ولكنها

(١) لا أعلم حالة لا يؤول فيها مبدأ صحيح أو نظرية صحيحة إلى خير الأمة ، ولكن طريق التطبيق أو ساعته قد لا تكونان ملائمتين: العرب

كانت مستحيلة التنفيذ كما يستحيل اليوم أن نحاول تنظيف أوروبا على أساس الواقع فيها مرة واحدة وإلى الأبد. والسياسي العظيم مثل الخادم البارع، يعلم أن التنظيف عملية يجب أن تتم كل صباح، وهو يرى أن الشجار شيء طبيعي فيحتمله بصبر، لأن شجارا آخر سيحدث على أثر ما يهدأ الشجار الأول، وهو يوافق على إجراء تسوية موقتة وإن كانت لا تكفل له ما يريد، لأنه يعلم أن لا شيء في الحياة البشرية يكفل لأي إنسان كل ما يريد بصورة دائمة. والسلم عالمية كانت أو اجتماعية لا بد أن تجيء وإن حالت دون ذلك عقبات متكررة. فتمر سنوات عشر أو عشرون يتم خلالها عمل الجيل ثم يتبع ذلك جيل آخر يمارس حياته اليومية من جديد

ومن حق الزعيم الذي ينال لقبه عن جدارة أن يكون مطاعا. فالمجتمع البشري الذي لا يستطيع أن يولي زعماءه الذين اختارهم الاحترام اللازم يجتمع مقضي عليه، لأنه لا يستطيع العمل. ولا مانع بالطبع من أن يفضل المجتمع نظاما من الحكم على نظام. ففي زمن الحرب مثلا يضطر إلى أن يستبدل بالنظام المدني النظام العسكري، فاذا تم ذلك وجبت الطاعة للزعماء الجدد. أما عدم النظام فيحتم الهزيمة في الجيش والفشار في الصناعة. وأما المجتمعات التي تقع تحت رحمة الأنظمة المتضاربة فتنظيمها سيء. فمن ذلك أن يتقسم العمال داعيتان مختلفان، صاحب العمل والنقابة. وهنا يجب أن تعرف حدود صاحب العمل وحدود النقابة معرفة واضحة. فاذا تم ذلك كان لكل منهما السلطان المطلق في الناحية التي يختص بها: وقد دلت التجربة في إنكلترا والبلاد الإسكندنافية على أن ذلك ممكن

ومن حق الزعيم أيضا أن يحافظ على زعامته، إذ كيف يستطيع زعيم أن يصل إلى نتائج حسنة دون أن يكون لديه الوقت الكافي. وقبل أن يعهد إلى رجل باعادة تنظيم مستعمرة أو تأسيس مصنع للطيران، من المحتم أن يجري بحثا واسعا وأن نثق أن هذا الرجل هو أحسن الناس المركز المطلوب: لكن إذا اختير الرجل كان من الواجب إفساح المجال له وإطلاق يده إلا في الحالات التي يتضح فيها أن خطأ وقع في الاختيار، وأن الرجل غير جدير بالثقة. إن الوقت يتيح للانسان إنشاء علاقات لا حصر لها ويسهل له الاضطلاع بأعباء السلطة

وكيف يستطيع المرء أن يوفق بين الإدارة الحازمة والوقت اللازم لها وبين حق الناس في الانتقاد بحرية؟ ألا يتحول قائد له سلطات مطلقة لا كابح لها إلى رجل عسوف أو مجنون؟ أما (الدوس هكسلي) فقد اخترع أخبار (لعبة القيصر) فنظر في أصدقائه على أساس ما يصنع منهم كقيصر لو أسندت إليه السلطة العليا. فلم ينجح في الاختبار إلا عدد قليل. ومن الواضح أن النقد ضروري ولكن السؤال هنا هو ماذا يستطيع النقد أن يفعل وإلى أي حد يجب أن يذهب؟

أما في الجيش وفي جميع الأعمال التي تتطلب اجراء مباشرا فتجب الطاعة العمياء. ويجيء النقد ها هنا من القادة أنفسهم. أما في الحالات العادية من حياة الناس الحرة فان كل إنسان يملك حق النقد في حدود يعينها الاختبار، فاذا أجمعت الأمة كان من الواجب أن يتغير قادتها من وقت إلى آخر. لكن يجب أن لا يشهر بهم ولا أن يغيروا مرات عديدة، أو يسيرهم رجل الشارع. وفي إنشاء الحرية الصحيحة يجب أن يقوم ذلك لا على قوانين عادلة فحسب ولكن على تربية أخلاقية قويمة أيضاً وعلى درجة استحقاقنا للحرية كشعب تقررها قدرتنا على احترام الزعيم النظامي وعلى الموافقة على المعارضة والإصغاء إلى ما تقول به، وأن نضع صالح الأمة فوق صالح الأحزاب والنفع الخاص. وليست الحرية شيئاً غير قابل للضياع. إنها منحة هامة ولكنها عسيرة المنال، ويجب أن نتمسك بها دائماً أبداً

هذه التربية الخلقية التي أشرنا إليها أشد ضرورة للذين كتب لهم أن يقودوا الناس. إذ بالإضافة إلى قدرة الزعيم على ضبط رفاقه؛ فانه يجب أن يكون ذا إحساس قوي بالواجب. وهو لا يستطيع الاحتفاظ بمركزه إلا إذا أثبت كل يوم أنه جدير به. وليس زعيما قط من إذا وضع على رأس جماعة أو مشروع حاول أن يجلب النفع لنفسه وليس زعيما من يرضى بقيادة في جيش ويجعل لذاته فوق واجباته. وليس زعيما كذلك من يقع فريسة الغضب أو التحيز، ولا من يضحي وهو ممثل دبلوماسي بمنفعة بلاده الخارجية في سبيل المؤامرات والمشاحنات الداخلية. إن مجال الطبقة الحاكمة هو الإدارة، أي توجيه البلاد في سبيل الشرف والعمل. والقيادة ليست ميزة، ولكنها أمانة وشرف

محمد أديب العامري

٣١ ، ٣٦